نـورُ الأنـوار في كشف السَّبـعَة الأسَرار

THE WAY OF THE SEVEN FOLD SECRET

www.muhammadanism.org
April 11, 2007
Arabic

تألیف

إ. ليلاس تـروتِّر

BY

I. LILLAS TROTTER

م

نورُ الأنوار

في

كشف السَّبعَة الأسَرار

THE SEVENFOLD SECRET. № 587.

فهرست الكتاب

ترقيم الصفحات لا يوافق المطبوع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الأوحد الصمد، الذي لا إله إلاّ هو، إنه قد أعدّ لمحبيه حيرات تفوق تصور الإنسان وقد أعلنتها لنا بروحه له الكرامة والقوة والمجد إلى دهر الدهور آمين

(وبعد) فيا أيها الأخوة من أهل الصوفية. توجد أمور كثيرة نحن متفوقون عليها سوية حتى أن المتفق عليها زادت على المختلف فيها فإن «الصوفي» (من أهل الباطن) هو الذي يبحث عن الأسرار المكتومة (المخفية) وهي أسرار الحقيقة الإلهية، وكذلك فهو يترك للآخرين قشر الأمور ــ أي الأشياء المادية التي تُرى ــ ويشتاق من صميم قلبه أنْ يصل إلى النواة (البزرة) في الداخل ــ أي إلى الأمور التي لا تُرى لأنها روحية أبدية.

أما المسيحيون فإنهم معكم لأن الإنجيل المقدس يقول «ونحن غير ناظرين إلى الأشياء التي ترى بل إلى التي لا ترى لأن التي ترى وقتية وأما التي لا ترى فأبدية»[1]

ولا لزوم لاحتقار القشر أي الاستهانة بالأمور الوقتية («مهنة الدنيا») مثل الديار والمأكولات والملبوسات وأفراح الأهل والأصدقاء والاستفادة من العلوم الخ. لأنها كلها عطية الله وهي مثل القشور التي في داخلها لبُ الحقيقة وهذه الحقيقة هي معرفة الله نفسه سبحانه وتعالى. ونحن مثلكم يا أهل الطريقة نريد أن نكسر القشر ولو بمشقة كبيرة ونسلم إرادتنا حتى نصل إلى لب الحقيقة وهذا اللب هو الاتحاد بالله تعالى

ومع ذلك فإن كان غرضنا وغرضكم واحداً أيها الأخوة إلاَّ أنه يوجد خلاف عظيم بيننا وبينكم فإنكم تعتقدون ــ حسب اختبار الأولياء ــ أنه يجب عليكم أن تجاهدوا وتكافحوا كثيراً حتى تتقدموا من مقامة إلى مقامة أما الله فيمنح الأحوال إلى من يشاء ويمنعها ممن يشاء فلستم متأكدين أن تصلوا في آخر الأمر إلى المعرفة والاتحاد. ولا يخفى أنه يوجد أمامكم في كل الطريق تجارب الدنيا وفخاخها حتى في «السمع» نفسه تخافون أن العالم والجسد والشيطان تغلبكم وتجركم إلى الذنب وهكذا تبعدكم عما كنتم تحسبون أنه باب السماء

---

[1] ٢ كورنثوس ٤: ١٨

لكننا نستطيع أن ندلكم على «طريقة» فيها فرح وسلام من أول خطوة، والتقدم في هذه الطريق لا يتوقف على الأعمال الصالحة مثل كثرة الصيام وقيام الليل والعزلة والتفكر (التأمل) ولا يستلزم تسليم أنفسكم إلى مرشدكم مهما يكن مشهوراً ولا يتوقف على تربية الأخلاق (الآداب) المقبولة لدى الله التي تبحثون عنها، وإنما هذه الطريقة الجديدة ليست إلاَّ إعلان («إشراق») سيدنا المسيح لأرواحكم وقلوبكم لأنه هو الشخص الوحيد الذي قد جاء إلى العالم ليأتي بنا إلى الله بواسطة فدائه الذي به قد أبطل كل الحجب الفاصلة بيننا وبين المولى عز وجل

فالغرض من هذا الكتاب هو أن نذكركم سبع كلمات أو أقوال مشهورة نطق بها سيدنا المسيح عن الرسالة التي قبلها من الله وقد نطق بها في السنوات الثلاث الأخيرة من حياته على الأرض وهذه الأقوال وغيرها من التي شرحناها في هذا الكتاب جميعها موجودة بالإنجيل الشريف فهي واردة إلينا عن الرسول يوحنا الذي كان أحد تلاميذ المسيح (الحواريين) وهو الذي كان يعرف سيده حق المعرفة. أما الإشارات الموجودة في هذه الأقوال السبعة فهي بسيطة للغاية حتى يستطيع الولد الصغير أن يفهمها، ومن الجهة الأخرى فهي عميقة وغامضة حتى لا يستطيع العلماء أن يدركوها ويعبروا عن معانيها تعبيراً كاملاً

ونحن نطلب إلى الله أن يعطيكم «روح الحكمة والإعلان في معرفته» أيْ في معرفة سيدنا المسيح

آمين

سر الرضى

فقالوا ليسوع ــ آباؤنا أكلوا المن في البرية كما هو مكتوب أنّه أعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا

فقال لهم يسوع ــ ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء بل أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء

«(أنا هو خبز الحياة)»

من يقبل إليَّ فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً

أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء إنْ أكل واحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم

(يوحنا ٦: ٣١ و٣٢ و٣٥ و٥١)

﴿ أنا هو خبز الحياة ﴾

البَابُ الأَوَّل

(سر الرضى)

لقد تذكرون يا إخوتنا المسألة المذكورة في التوراة وهي أن بني إسرائيل حينما سافروا في البرية وليس عندهم زاد يعيشون به خافوا أنْ يموتوا جوعاً فَدَعَوُا الله سبحانه وتعالى فأعطاهم الله خبزاً من السماء مدة ٤٠ سنة فعاشوا به يوماً فيوماً هم وأهل بيوتهم كل فرد من أفراد هذا الجند العظيم

وكانت تلك البرية قفرة قاحلة بلا ماءٍ وبسبب عدم وجود الماء لم يمكنهم أن يزرعوا حبوباً (غلة) يقتاتون بها وفضلاً عن ذلك فإنهم لم يقيموا في موضع واحد بل كانوا دائماً مسافرين متنقلين من مكان إلى مكان وآخر ما كان فيها أنهم ربما يجدون عشباً (مرعى) لمواشيهم

ومع ذلك قيل في الزبور: «أكل الإنسان خبز الملائكة أرسل إليهم زاداً للشبع[٢]» وأيضاً «خبز السماء أشبعهم[٣]» وهذا الخبز لم يكن من الأرض بواسطة تعب الإنسان بل هو هبة من الله بطريقة معجزية (خارقة للطبيعة) فظهر كل صباح على وجه الأرض بلونه الأبيض وطعمه الحلو وكافياً لجميع الشعب ــ لكل رجل وكل امرأة وكل ولد وكل بنت ــ وحينما رآه بنو إسرائيل ولم يعرفوا ما هو قالوا بعضهم لبعض «من» ومعنى ذلك بلغتهم «ما هو؟» فصار اسمه عندهم «المن». وعلى كل فهم فهموا شيئاً واحداً وهو أنّ المن قد حفظهم من الموت جوعاً فصار لهم بالحقيقة خبز الحياة

والآن لنتأمل في الكلمات المذكورة في الصفحة الأولى من هذا الباب وهي كلمات سيدنا المسيح (له المجد) وهذه الكلمات فيها سر عظيم لأن «المن» ــ الذي أنزله الله على بني إسرائيل ــ له معنى خفي (سري) فيه إشارة إلى سيدنا المسيح نفسه لأنه هو «خبز الحياة الذي نزل من السماء»

وإذا قلتم كيف ذلك؟ نقول لكم إنّ الجميع يعلمون بأن هذا العالم برية قفرة وحضرتكم لهذا السبب عينه قد تركتم الدنيا و«لقنتم في الطريقة» حتى تجدوا هناك ما يشبع جوع أرواحكم على

---

[2] مزمور ٧٨: ٢٥
[3] مزمور ١٠٥: ٤٠

أن هذا الجوع الروحي لا يشبعه سوى الله وحده ــ جلّ جلاله ــ كما قال أحد (أوليائنا) الصالحين في قديم الزمان قال: «أنت يا رب قد خلقتنا لنفسك فلا يستقر القلب إلاّ فيك»

ومع ذلك فالرضى الذي تطلبونه لا يزال بعيداً عنكم وحضرتكم تعترفون بأن قليلين يداومون الزهد ويستمرون سائرين من مقام إلى مقام حتى يبلغوا الرضى الذي لا نهاية له

يا إخوتنا ــ اسمحوا لنا أن نخبركم عن سبعة أسرار عظيمة كشفها لنا الله تعالى وأوّل الأسرار هو هذا السر العظيم: ــ إن الرضى (الشبع) الذي تحسبونه بعيداً هو بالحقيقة قريب منكم جداً إذا أردتم أن تقبلوه. فقبلما شرعتم في طلب مرضاة الله تعالى كان الله يطلبكم ويبحث عنكم ولهذا السبب أتى سيدنا المسيح إلى العالم لأن الله أرسله حتى يكون عندنا بواسطته «طريقة» لإشباع شوق النفس التي خلقها الله والتي تشتاق إليه

والآن نبين لكم المعنى بالتفصيل: لا يخفى أن الله أنزل المن على الرمال في البرية أبيض وحلواً وطرياً من ندى السماء وهكذا أرسل سيدنا المسيح من السماء بكيفية عجيبة لا يعرفها أحد بل كانت ولادته آية من آيات الرحمن ولذلك فحضرتكم تقولون عنه إنه «نزل من عند الله» بل إنه «روح منه» فحلّ في الجسد الذي هيأه الله لأجله وهذا الجسد كان منزهاً عن كل خطية أعني إنه كان خالياً من فساد بني آدم فحلت فيه طهارة اللاّهوت نفسه. ويوافق على ذلك قول المسيح إلى اليهود: «أنتم من أسفل أما أنا من فوق، أنتم من هذا العالم أما أنا فلست من هذا العالم» (يوحنا ٨: ٢٣) وقال أيضاً «قد نزلت من السماء» (يوحنا ٦: ٣٨)

فقوله هذا «قد نزلت من السماء» فيه معنى أعظم وأسمى لأنه يشير إلى وجود سيدنا المسيح عند الله منذ الأزل أي من ابتداء كل شيء وأنتم يا إخوتنا تصرحون بذلك لأنكم تلقبون المسيح «روح الله» أو «روحاً منه» والمعنى واحد على كل حال، ولا يخفى أن روح الإنسان موجود في الإنسان من أول نسمة حياته، وحيث إن الله «قديم» أعني أنه غير حادث غير مخلوق بل باقٍ منذ الأزل، وحيث إن المسيح هو روح الله، فالنتيجة أن المسيح كان عند الله منذ البدء. ويوافق على ذلك قول الإنجيل الشريف: «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله»

ثم إن السيد المسيح طول مدة حياته على الأرض بقي طاهراً وصافياً مثل المن الصافي المحفوظ بواسطة الندى الذي كان تحته وفوقه فحفظه من قذارة التراب المحيط به هكذا السيد المسيح لم يمسسْه الشيطان أو العالم بل بقيت حياته مخصصةً لله ومنزهة عن كل عيب أو فساد

وليس هذا يا إخوتنا كل ما هنالك، ففي آخر حياة سيدنا المسيح في هذه الدنيا صار لنا «خبز الحياة» بمعنى آخر غير معنى المن، فهو شبه نفسه بحبة الحنطة ومعنى ذلك التشبيه إن سيدنا صار خبز الحياة عن طريق الآلام. انظروا إلى الخبز الذي نأكله وتأملوا فيه فإن الحنطة لا تصير خبزاً إلا بعد اختبار مؤلم فإنها

أولاً تُقطع بالمنجل ثم تداس تحت أرجل الثيران ويطحنها الطاحون ثم يلقى الخبز في نار المخبز وتكسره أيدي البشر حتى يصلح للأكل. كل هذا نشاهده يومياً. وهكذا سلك المسيح طريق الآلام والأوجاع من مرحلة إلى أخرى حتى الموت لكي يهب لنا حياة، فهو خبز الحياة

أيها الإخوان إني أسمعكم تتساءلون كيف تصير لنا هذه الحياة أو كيف ننالها. أجيبكم بأن الشرط الوحيد هو أن نقبل المسيح بالإيمان فليس علينا إلاّ إتمام هذا الشرط أما النتيجة التي تنتج عن هذا الإيمان البسيط ــ إيمان الطفل بأبيه ــ فلا نعرف كيفية إجرائها تماماً وإنما نعرف أنه كما أن الخبز اليومي يطعم ويقوي حياتنا الجسدية هكذا يعطي المسيح ــ خبز الحياة ــ حياة الله لنفس كل من يقبله بالإيمان. نعم إن هذا سر عظيم لم ندرك بعد كل معناه العميق لكنا نثق بالمسيح ثقةً تامةً أنه كما يصير الخبز الذي تأكله أجسادنا لحماً ودماً وعظماً فيتحد مع أجسادنا كذلك يتحد المسيح معنا اتحاداً روحياً يفوق كل وصف وتصور وبذلك يعطي لنا طبيعة جديدة وهذه الطبيعة تؤثر فينا تأثيراً غريباً حتى نشتهي ما يشتهيه هو ونكره ما يكرهه هو ــ أعني كل ذنب وخطية باطنية كانت أم خارجية

وزد على ذلك فكما أن الخبز يشبع جوع الجسد هكذا حلول المسيح فينا (أو اتحاده معنا) يشبع جوع النفس حتى يجد المؤمن به راحة قلب تامة

أيها الإخوة إن الجوع الروحي الذي عندكم قد سمح به الله سبحانه وتعالى كي يهيئكم لتنالوا الرضى الروحي حسب قول السيد المسيح من فمه الطاهر إذ قال «من يقبل إليّ فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً» (بشارة يوحنا ٦: ٣٥)

على أنه يوجد فرق عظيم بين الرضى (أو الشبع) الذي قد شرحناه الآن وبين الرضى أو السرور الذي قد تجدونه في الوجد الناتج من ﴿الذكر﴾ فليس كل واحد يجد السرور التام في الأذكار ولو نال الوجد لم يجد اختباراً دائماً بل وجدها حالة وقتية أشبه بحلم لذيذ لا يلبث النائم أن يستيقظ منه ويرجع إلى حياته اليومية أما كون سيدنا المسيح يشبع شعبه دائماً أبداً فإثباتاً لهذه الحقيقة قد أمر أتباعه في كل مكان وكل زمان أن يجتمعوا معاً ويكسروا خبزاً ويشربوا عصير

العنب تذكاراً لجسده الذي كسره لأجلهم ولدمه الذي سفكه لأجل خطاياهم وبواسطة هذه «الشركة المقدسة» يشهدون للجميع أن سيدهم قد أشبع جوعهم الروحي وأروى عطشهم وأنه يقترب إلينا بهيئة غير منظورة ويعزينا بمحبته

أيها الأخ الجائع كما أنك تفتح فمك لتتاول الطعام اليومي هكذا افتح قلبك للمسيح وبهذه الطريقة تختبر أن الرضى (الشبع) الذي طالما بحثت عنه وزعمت أنه بعيد عنك إذا كان قريباً منك جداً وكما أن الوالد الحنون يعطي أولاده خبزاً ليأكلوا في الصباح قبل قيامهم للسفر هكذا أبونا السموي يعطي سر الرضى ليس في آخر مرحلة من طريقنا بل في أول الطريق

هذا هو السر الأول من الأسرار السبعة إن المسيح يشبعك الآن في هذه الساعة لأنه كما نزل المن إلى حيث كان بنو إسرائيل هكذا قد أتى خبز الحياة إلى حيث أنت مقيم فلا لزوم لأن تتعب نفسك بالبحث عنه فهو قريب منك كما قال في كتابه العزيز «لا تقل في قلبك من يصعد إلى السماء أي ليحدر المسيح أو من يهبط إلى الهاوية أي ليصعد المسيح من الأموات لكن ماذا يقول ــ الكلمة ــ قريبة منك»[٤]

لا تظن أيها الأخ أنّ هذا شيء خاص بالمسيحيين ولا يخصك بل بالعكس إن المسيح قال عن نفسه إن هذا الخبز السري مُرسل من الله لأجل حياة العالم وحيث إنك أنت موجود في العالم فهذا الخبز لك. ولا يخفى أن كل إنسان يحتاج إلى خبز في الحياة اليومية، الطفل والأشيب، الغني والفقير، في كل زمان وكل مكان. وهكذا قد أتى المسيح ليس ليشبع الغني دون الفقير بل ليشبع كل الأمم ولهذا السبب قد أُعطي إليه لقب «مشتهى كل الأمم» نعم إنه هو مشتهاك يعني أنه حظك (أو كما يقول بعضهم حظوظك) الذي تسعى وراءه وهو الذي «فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً»[٥] فافتح قلبك والمسيح يملأه نوراً ويشبع كل شوق قلبك

فافتح قلبك الآن وقل له إنك لا تفهم كثيراً من هذه الأمور ولكنك قد شعرت بشوق إلى الله وإنك تؤمن بالذي أرسله الله وحالما تفتح قلبك فهو يدخل إليك ويشبعك. «ومن له الابن فله الحياة»

---

[4] رومية ١٠: ٦ و٧
[5] كولوسي ٢: ٩

سر رؤية القلب

كان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتياً إلى العالم

أنا قد جئت نوراً إلى العالم حتى كل من يؤمن بي لا يمكث في الظلمة

ثم كلمهم يسوع أيضاً قائلاً

(أنا هو نور العالم)

من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة

النور معكم زماناً قليلاً بعد فسيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام

(يوحنا ١: ٩ و١٢: ٤٦ و٨: ١٢ و١٢: ٣٥)

﴿ أنا هو نور العالم ﴾

الباب الثاني

(سر رؤية القلب)

قد تأملنا في ما مر في سر عظيم من الأسرار السبعة عن فيض رحمة الله في شخص سيدنا المسيح أعني أننا رأينا أن «فيه كانت الحياة»، فلنتقدم الآن إلى سر آخر من هذه الأسرار لأن مضمون الآية المذكورة أن «الحياة كانت نور الناس» وقد ورد هذا القول في الفصل الأول من إنجيل يوحنا وفي آيات أخرى كثيرة أن المسيح هو نور العالم

وإنْ كانت الحياة وُجدت قبل النور لكن الحياة تحتاج إلى النور وبدون النور فالحياة تموت، انظر إلى البزرة التي حالما تنبت تشعر بلزوم النور فتمتد حتى تصل إلى سطح الأرض وهناك تجد نور الشمس وهكذا الحال مع نفس الإنسان فإنها تحتاج إلى نور لتعيش به وقد أتى سيدنا المسيح إلى العالم ليس لكي يكون حياة العالم فقط بل ليكون نور العالم أيضاً. والآن دعنا نبحث في معنى هذا القول

في حياتنا اليومية توجد أنواع كثيرة من النور بها نستعين حتى نتنور فحينما يقبل علينا الليل نوقد في كل بيت مصباحاً أو شمعة لكن عند شروق الشمس يكفي نورها للجميع كما لا يخفى

انظر أيضاً إلى الأمم في ظلمات جهالتهم فكل أمة تحاول أن تنير ظلامها بسراج العقل فقط مع أن ذلك النور لا يزيد عن نور شمعة ضئيلة وجميعنا سواء أكنا مسيحيين أو مسلمين نعلم ونعترف بأن «نور السموات والأرض» هو الله سبحانه وتعالى. وقد قال سيدنا داود النبي في زبوره إن «الرب الله شمس» وبدون هذه الشمس يبقى الإنسان في ظلام

يا عباد الله. نريد أن نتباحث معكم في مسألة هامة هي هذه: كيف يصل نور الشمس وحرارتها إلينا والشمس بعيدة عن الأرض؟ ولو فرضنا أنه في الإمكان أن نسافر تلك الأبعاد (المسافات) الشاسعة إلى الشمس لاحترقنا من حرارتها. فليس باليد حيلة، إلاّ إن الشمس تتكرم علينا فترسل إلينا شعاعاً من أشعتها هو من طبيعة الشمس وجوهرها وهذا الشعاع يصل إلينا حتى إلى أبواب منازلنا مع أنه في الوقت ذاته واحد مع الشمس في كبد السماء، وقد أجاد أحد شعرائكم بقوله

«إن نور الشمس هو الذي يظهر لنا الشمس»

نعم إن الإنسان كان عنده معرفة بالرب قبل إتيان سيدنا المسيح لكن تلك المعرفة كانت سطحية والعلماء يسمونها «فطرية» وهي أشبه شيء بطلوع الفجر قبل بزوغ الشمس بساعة أو بساعتين. وحينما جاء المسيح إلى عالمنا هذا أظهر الله ذا الجلال والإكرام لكنه أظهره لعين الروح، اسمع ماذا يقول الإنجيل المقدس عن سيدنا المسيح. يقول إنه «بهاء مجده ورسم جوهره[٦] وإنه صورة الله غير المنظور[٧] وإن الله ظهر في الجسد[٨]» فهذه الأقوال تدل على «تجلي» الله للإنسان. فنحن نسميه «نور العالم» وقد قيل عنه قبيل ولادته من مريم العذراء: ـــ «بِأَحْشَاءِ رَحْمَةِ إِلَهِنَا الَّتِي بِهَا افْتَقَدَنَا الْمُشْرَقُ مِنَ الْعَلاَءِ لِيُضِيءَ عَلَى الْجَالِسِينَ فِي الظُّلْمَةِ وَظِلاَلِ الْمَوْتِ لِكَيْ يَهْدِيَ أَقْدَامَنَا فِي طَرِيقِ السَّلاَمِ»[٩]

وكما هو الحال مع العالم هكذا مع قلب الإنسان الذي يمثل عالماً صغيراً. فحيث إنه من العبث أن يحاول الإنسان الوصول إلى الشمس بمجرد اجتهاده كذلك من المحال أن يصل إلى معرفة الله بواسطة جهده واجتهاده، كما قال النبي أيوب: «أإلى عمق الله تتصل أم إلى نهاية القدير تنتهي»[١٠]

كان عند اليونان (الأروام) خرافة قديمة عن شخص اسمه ايكاروس صنع لنفسه جناحين ليطير بهما إلى الشمس لكنه لصقهما على كتفيه بالشمع فعندما ارتفع وحلق في الجو ذاب الشمع من حرارة الشمس وحينئذ انفصل عنه الجناحان فسقط ايكاروس على الأرض ومات. وهكذا يكون الحال مع جهودنا وعزائمنا فإنها تذوب سريعاً ونحن نقع على الأرض بحالة الفشل التام فاقدين كل أمل بالوصول إلى معرفة الله التي طلبناها

إذاً والحالة هذه فما العمل أيها الإخوة؟ إن خير طريقة للوصول إلى معرفة الله ليست بصعودنا إليه تعالى بل بواسطة نزوله إلينا وذلك في شخصية سيدنا المسيح كما قيل في الإنجيل الشريف[١١]: «اللهَ الَّذِي قَالَ أَنْ يُشْرِقَ نُورٌ مِنْ ظُلْمَةٍ هُوَ الَّذِي أَشْرَقَ فِي قُلُوبِنَا لإِنَارَةِ مَعْرِفَةِ مَجْدِ اللهِ فِي وَجْهِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ»

---

[6] عبرانيين ١: ٣
[7] كولوسي ١: ١٥
[8] أول تيموثاوس ١: ١٦
[9] بشارة لوقا ١: ٧٨
[10] أيوب ١١: ٧
[11] ٢ كورنثوس ٤: ٦

هذا هو كشف مجد الله (أو كما تقولون السبُحات الإلهية) هذه هي رؤية القلب، هذا هو إيمان الرؤية[12] يعني أنه غير الإيمان الاستدلالي، هذا هو الإشراق الثابت دائماً بخلاف الملامح (اللمحات) التي تظهر لك من وقت لآخر، وهذا هو النور الحقيقي الأصلي الذي لم يكن فيك أصلاً بل هو من الخارج لأنه هو سيدنا المسيح الذي أرسله الله ليكون نور العالم، فيشرق عليك إذا رفعت إليه عينيك وقَبلِته بنية القلب مثلما يستيقظ النائم ويفتح عينيه هكذا ينيركَ المسيح ونحن شهود لذلك لأننا قد اختبرنا الأمر فوجدناه صحيحاً يا إخوتنا. قد قلنا الآن إننا اختبرنا هذا الأمر فوجدناه حقاً ولذلك نشتاق إلى أن تعرفوا أنتم أيضاً المجد والجمال الموجودين في «المحبوب» الذي هو إعلان نعمة الله ومحبته وقوته لنفوسنا

وليس ذلك فقط فإنه يوجد معنى آخر في عبارة «نور العالم» لأن سيدنا المسيح كان يظهر لنا كل مدة حياته على الأرض ما هي صفات «الإنسان الكامل» كما قيل في الإنجيل «والحياة كانت نور الناس» فما عليك إلاَّ أن تنظر إليه كما هو معلن لنا في الإنجيل وحينئذ يشرق عليك مجده الذي يتزايد كما يتزايد نور الشمس في الصباح الذي يبدد الظلمة ويأتي بالحياة والأثمار لأنه ظاهر ــ من الآية التي كتبناها فوق هذا الفصل ــ إن الحياة والنور متلازمان ــ

يا أخي العزيز افتح عينيك وانظر فإن النور نفسه يبحث عنك فكما يدخل شعاع الشمس كل زاوية وركن من منزلك هكذا تملأ النعمة كل زاوية من قلبك، ومع كل ذلك يوجد حجاب واحد يستطيع الإنسان أن يحجب به نور الشمس ومجدها وذلك الحجاب هو جفن عينه الصغير والرقيق فمتى أغمض الإنسان جفنه فلا ينتفع شيئاً من كل أشعة الشمس، أما الذين يقولون إنهم مبصرون لكنهم بالحقيقة يغمضون أجفان قلوبهم عمداً ضد شعاع الحق فقد أنذرهم سيدنا المسيح إنذاراً حيث قال عنهم «وهذه هي الدينونة إن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة» (يوحنا ٣: ١٩). وأما الذين يعترفون بعجزهم قائلين «إننا عميان لا نبصر النور» فلمثل هؤلاء يظهر رحمته ونعمته

إذاً والحالة هذه فاهتم أيها الأخ واحذر لئلا تغمض عينيك ضد النور الحقيقي فيدركك الظلام ولا تسمح للكبرياء والخوف أو ارتكاب الخطية أن يحجب رؤية القلب فلا تكن بين الذين يحبون الظلمة أكثر من النور لأن هؤلاء في خطر عظيم وهو خطر تسليمنا إلى ما نختاره لأنفسنا وإذا أحببنا الظلمة أكثر من النور فهذا أشقى حال

---

[12] في بر الجزائر يقولون «إيمان مراوي» أي مرائي وأما نحن فنقول إيمان الرؤية

أما إذا فتحت عيني روحك ونظرت تجلي سيدنا يسوع المسيح كنور العالم فيوجد في الإنجيل المقدس تنبيه مخصوص يهمك أن تعرفه وهو أن النور الذي جاءك مرة واحدة يجب أن تسير في ضوء ذلك النور أعني أن تتبع المسيح الذي هو نور العالم نعم إن إتباعه له معانٍ كثيرة وعظيمة لكن المعنى الضروري ظاهر من الابتداء وهو أن هذا النور الجديد يميز بين الخير والشر بكيفية لم تعرفها قبلاً، حتى إن أموراً كثيرة مما حسبتها حلالاً أصبحت الآن في عينيك حراماً «خطية» حسب قول الإنجيل «لكن الكل إذا توبِّخَ يظهر بالنور لأن كل ما أظهر فهو نور»[13] وبهذه الكيفية أيضاً يكون سيدنا المسيح «نور العالم» لأنه مثل الشمس الطبيعية التي تبين لنا هباء التراب (الغبار) في ذات الهواء الذي كنا نظنه نقياً قبل أن كشفه ذلك الشعاع.

والآن ما هو معنى إتباع النور؟ معناه إنك تترك حالاً كل الأعمال الردية والعادات المذمومة ومعاشرة الأشرار بل وأكثر من ذلك أن تبطل الشهوات الفاسقة وحتى الأفكار الشريرة وكل ما ترى أنه خطية وإلاّ فتجد أن نورك يحتجب مثل الشمس المغيمة وقلبك يصير فاتراً

أما إذا كنت تتبع كل شعاع من النور الذي يأتيك من المسيح فالنور يزداد لمعاناً إلى «النهار الكامل»[14]، والنور يأتي بأنواع وطرق كثيرة تارة من كلام الله في الكتاب المقدس رأساً أو من فم المعلم البشري أو بواسطة تبكيت روح المسيح لقلبك، وإذا كنت في شك من جهة طريقك فسلم نفسك إلى المسيح الذي هو نورك وهو يعلمك عن الطريق الذي يجب أن تسير فيه إذا طلبت ذلك بحرارة

وهذا هو معنى الآية في رأس الباب «من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة[15]» فلو فرضنا إننا نستطيع أن نتبع شمس الطبيعة في كل سفرها بسرعة مثل سرعتها ففي تلك الحالة لا نراها تغرب عنا مطلقاً ولا يكون ليل، والحقيقة إن الظلام يأتينا لأننا ساكنون على الأرض بينما تسير الشمس في طريقها وأخيراً تصير الأرض بيننا وبين الشمس فتحجبها عنا، أما لو استطعنا أن نتبع الشمس بكل سرعة لكان لنا نهار دائم لا ينقطع

---

[13] أفَسُس ٥: ١٣
[14] أمثال ٤: ١٨
[15] يوحنا ٨: ١٢

نعم إن هذا غير ممكن في العالم المادي لكنه ممكن في العالم الروحي لأننا إذا سلمنا أنفسنا لإتِّباع المسيح بالطاعة التامة فلا نبقى في الظلمة والله تعالى قادر أن يجعلنا طائعين كما قال النبي داود «التصقت نفسي بك يمينك تعضدني[16]»

أيها الأخ. هل قرأت هذه الصفحات ومع ذلك لا تزال تغمض عيني قلبك عن المسيح؟ إذن أرجوك أن تفتحهما سريعاً ما دام النور موجوداً لأنك لا تعرف كم يكون النور معك «ما دام لكم النور آمنوا بالنور» لئلا ينصرف عنك المسيح كما انصرف عن الذين من قبلك. استمع لقول الإنجيل «استيقظ أيها النائم وقم من الأموات فيضيء لك المسيح[17]»

---

[16] مزمور ٦٣: ٨

[17] أفَسُس ٥: ١٤

سر الدخول أو التقرب

قال لهم يسوع ــ الحقّ الحقّ أقول لكم إنّ الذي لا يدخل من الباب إلى حظيرة الخراف بل يطلع من موضع آخر فذاك سارق ولص

فقال لهم يسوع أيضاً الحقّ الحقّ أقول لكم إنّي أنا باب الخراف

(أنا هو الباب)

إن دخل بي أحد فيخلص ويدخل ويخرج ويجد مرعىً

(يوحنا ٩: ٤١ و١٠: ١ و٧ و٩)

﴿ أنا هو الباب ﴾

الباب الثالث

(سر الدخول أو التقرب)

قد تأملنا في الفصل السابق في قول السيد المسيح عن نفسه «أنا هو نور العالم» والآن لنتأمل في سر آخر عجيب هو سر الدخول عند الله تعالى (أي سر القربة) وهذه الخطوة هي الخطوة السابقة للاتحاد معه الذي هو غاية بركتنا وفرحنا الدائم الخالد، وكما أن الصداقة البشرية تقتضي اقتراب الصديقيْن أحدهما للآخر قبل اتحاد قلبيهما معاً هكذا الحال أيضاً مع الصداقة (الخلة) الإلهية

وفي كلمات المسيح التي افتتحنا بها هذا الباب الجديد نرى تعبيره عن الاقتراب إلى الله يعني أنه يمثله بباب حظيرة الخراف، ومعلوم أن حظيرة الخراف (أو الزريبة) هي بقعة حصينة فأصبحت موضع الأمان وقت الخطر وإنْ كانت البرية تحيط بها ويسمع صوت الوحوش لكن الغنم قد دخلت إلى داخل الحظيرة في أمان تام

وهكذا يبين لنا الله بواسطة هذا السر الجديد إنه يوجد سلام وأمان في برية هذا العالم الشرير يمكننا أن ندخل ونطمئن فيه كما تطمئن الخراف داخل الحظيرة لأن الشيطان ليس له قدرة على دخول هذا المأمن (القلعة الحصينة) ليخطف النفس، فالنفس في أمان الآن وفي كل حين

يا مسلمون ــ هذا الفكر جديد عليكم لأن اعتقادكم كما نعرفه هو أن الإنسان لا يتخلص إلا في يوم الحساب فلا يستطيع أن يعلم الآن أنه في أمان بل بالعكس أنه مثل الخراف التي ربما تصير فريسة الوحوش في أي وقت. فاسمعوا إلى قول السيد المسيح فيه يتكلم عن حظيرة في وسط هذه الدنيا ويصف لنا باب الدخول

نعم أيها الإخوة إن تشبيه طريقة الوصول إلى الله بباب هو أيضاً تشبيه أو فكر جديد فإنكم تزعمون أن الإنسان منفصل عن الله تعالى بسبعين ألف حجاب وأن التقدم إلى كل مقامة جديدة يبطل عشرة آلاف فقط فلا تحوزون نعمة القربة بل عند بلوغ «حال الوصول» أي عند نهاية السفر الطويل بإذن الله

لكن رمز (أو تشبيه) الباب أمر آخر ويقصد منه الدخول والدخول لا يقتضي إلاّ خطوة واحدة كما أن دخول بيتك شيء بسيط خطوة واحدة فتكون في داخل البيت فلا يحتاج الأمر إلى تقدم تدريجي

ثم إنه يوجد فرق آخر بين أفكارنا وأفكاركم فإنكم تظنون أن الحجب عبارة عن جهل ونقص وأنهما يفصلان الإنسان عن الله أما التشبيه بباب فهذا يدل على سور (حائط) والكتاب المقدس يعلمنا أن الإنسان لا ينفصل عن الله بواسطة جهله ونقصه بمقدار ما ينفصل عنه تعالى بواسطة خطيته كما قال النبي اشعيا «آثامكم صارت فاصلة بينكم وبين إلهكم وخطاياكم سترت وجهه عنكم حتى لا يسمع»[١٨]

ولم نولد وهذا السور موجود بل بالعكس فنحن أنفسنا قد بنيناه. نعم صحيح إن أساس هذا السور هو خطية أبينا آدم لكنه قد بني بألوف وملايين من ذنوب ذرية آدم فإن كان الأساس مدفوناً في طبيعتنا الأثيمة التي ورثناها لكنا منذ الطفولية قد بنينا حجراً فوق حجر من الخطايا الكبيرة والصغيرة ولا يعلم عددها إلاّ الله تعالى فإنه يقول: «علمت أن ذنوبكم كثيرة وخطاياكم وافرة»[١٩] ومرور الزمن لا يحطم ذلك السور بل يزيده متانة وصلابة

أيها الأخ ــ إنْ كان قد وصل إليك ولو شعاعة واحدة من المسيح الذي هو نور العالم فأنت قادر أن ترى أن سور خطاياك سور عال عظيم ــ فإذا تعمل لكي تجد طريق الوصول؟ قد تدور حول السور الذي بنيته وتفتش على باب الدخول ولكنك لا تجد. وإنك تجتهد أن تخلع حجرة واحدة فقط من سور الخطايا حسب فكرك إن الحسنات يُذْهِبْنَ السيئآت لكن لا فائدة من استبدال حَجَرة بأخرى أسوأ منها لأنه قيل: إنه حتى حسناتنا كلها سيئآت نوعاً وقد قالت رابعة العدوية «استغفارنا محتاج إلى استغفار» أو كما يقول كتاب الله المقدس «خطاياكم في جميع أعمالكم»

فاعتمادنا على توبتنا أو على شفاعة الأولياء أو حتى الأنبياء لا يجدي نفعاً لأن جميع هؤلاء مشتركون في طبيعتنا الفاسدة فلا توبة ولا شفاعة تهدم السور لكن الذنوب التي تأسس السور عليها يجب أن تزال وتمَّحي لأننا لا نستطيع الدخول عند الله إلا بإزالة تلك الذنوب

فلنرجع الآن إلى رمز الباب ولنعلم أن هذا الباب ليس هو فتحة قد تركها البناء كما هي العادة في الأبنية بل هو باب يفتح بواسطة كسر بعض الحجارة في السور وإن كان السور من اللبن فلا بد من نزع بعض اللبن منه وهكذا إن كان السور من خطايا بني آدم فيجب أن نجد واسطة لإزالة الخطية

---

[18] إِشَعْيَاء ٥٩: ٢
[19] عاموس ٥: ١٢

أما دين الإسلام فليس فيه طريقة لنزع الذنوب ولا يوجد فيه إعلان عن الفادي الذي يقدر أن يقدم فداءً عن الذنوب فيزيلها أو يبطلها

فهذا هو السر الثالث من الأسرار السبعة إن الله تعالى قد أوجد طريقة لمحو الخطية أي لإبطالها كما يقول الكتاب المقدس «الآن قد أظهر (المسيح) مرة عند انقضاء الدهور ليبطل الخطية بذبيحة نفسه»[٢٠] واستطاع المسيح أن يبطل الخطية لأن طبيعته كانت معصومة يعني منزهة عن الخطية. وقال الكتاب عنه «فَإِنَّ الْمَسِيحَ أَيْضاً تَأَلَّمَ مَرَّةً وَاحِدَةً مِنْ أَجْلِ الْخَطَيَة الْبَارُّ مِنْ أَجْلِ الأَثَمَةِ لِكَيْ يُقَرِّبَنَا إِلَى اللهِ»[٢١] وأيضاً: «أظهر لكي يرفع خطايانا وليس فيه خطية»[٢٢] وقد سبق إِشَعْيَاء النبي فتنبأ عن الكيفية التي بها تم إبطال الخطية هذا قائلاً «كلنا كغنم ضللنا ملنا كل واحد إلى طريقه والرب وضع عليه (يعني على سيدنا المسيح) إثم جميعنا»[٢٣] ولقد تمت هذه النبوة وجمع المسيح ذنوب العالم وحملها هو نفسه وقيل عنه «الذي حمل هو نفسه خطايانا في جسده على الصليب»[٢٤] فإنه قد حملها عدة ساعات وهو مصلوب على الصليب حتى أن ثقلها حجب عنه وجه الحضرة الإلهية وأخيراً انكسر قلبه ومات قائلاً «قد أكمل»[٢٥] وهكذا حينما خرج من العالم بالموت رفع الخطية وفتح باب الدخول كما هو مكتوب «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» تمجد اسمه

وليس هذا فقط بل علينا أن نتأمل في بقية كلامه «إن دخل بي أحد فيخلص» وهذا الكلام لا يقصد منه أن الإنسان سيدخل الجنة بعد الموت بل أنتم أيها الإخوة أول من يفهم هذه الحقيقة إنه من الممكن أن ينتقل الإنسان من حال إلى حال هنا في هذه الدنيا الآن وكذلك الإنسان الذي يتخذ المسيح باباً يدخل به يستطيع أن ينتقل من الخطر ومن الشيطان إلى حالة أمان وسلام مثل حالة الخراف داخل الحظيرة

اسمع أيها الأخ العزيز ــ إنك قد أتعبت نفسك بحركاتك الكثيرة في تفتيشك عن الباب وأيضاً بتأملاتك وأصوامك وأذكارك لكنني أترجاك أن يصير هذا السر الجديد سر القربة وكيفية الدخول يصير سرك أنت، فإذا انكشف لك إن خطاياك قد فصلت بينك وبين الله وإنك في احتياج

---

[20] عب ٩: ٢٦
[21] ١ بطرس ٣: ١٨
[22] ١ يوحنا ٣: ٥
[23] إِشَعْيَاء ٥٣: ٦
[24] ١ بطرس ٢: ٢٤
[25] يوحنا ١٩: ٣

إلى وسيط ليس من هذه الأرض فإنك الآن واقف على العتبة فتقدم خطوة واحدة فقط وسلم نفسك للمسيح مؤمناً إن موته لأجلك قد كسر وأزال كل حاجز من أمامك وإنك الآن متصالح مع الله

لا تخف أنت، لأن قوله «إن دخل بي أحد» يقصد منه أنت نفسك لأنه لا يستثنى فرد واحد من جميع الأجناس والأمم والألسنة والمذاهب فيكون لك الدخول بواسطة هذا الباب العجيب فادخل بكل شجاعة مع تواضع لأنه إذا فتشنا على طريق آخر فذلك عيب علينا وبلا فائدة لأن هذه الحظيرة ليس بها إلاَّ باب واحد، أما قول سيدنا المسيح فلم يقل «أنا باب من الأبواب» بل قال «أنا هو الباب» فلا يوجد إلاَّ باب واحد وذلك الباب هو المسيح

فادخل سريعاً أيها الأخ لأن إبليس خصمك زائر عليك حتى عتبة الباب كما قال الكتاب «كأسد زائر يجول ملتمساً من يبتلعه»[٢٦] فتشجع وادخل حالاً

والآن نختم هذا الفصل بالآية: «ويدخل ويخرج ويجد مرعىً»[٢٧] ومعنى ذلك إنه حيث إننا الآن قد نلنا الخلاص يعني قد وصلنا إلى حالة الأمان والسلام تحت رعاية المسيح نستطيع أن نخرج مع المسيح إلى العالم لنساعد الذين لا يزالون خارج الحظيرة ونجد في ذلك لذة وفرحاً، لأن راعينا لا يرضى بأن نصرف حياتنا في الكسل (بعد ما خلصنا) ولا في القراءة والتأمل والعزلة بل في البحث عن غيرنا متبعين خطوات سيدنا الذي «جال يصنع خيراً»

---

[26] ١ بطرس ٥: ٨

[27] يوحنا ١٠: ٩

سر الرعاية

«قال لهم يسوع ــ إنّ الذي يدخل من الباب فهو راعي الخراف والخراف تسمع صوته فيدعو خرافه الخاصة بأسماء ويخرجها. ومتى أخرج خرافه الخاصة يذهب أمامها والخراف تتبعه لأنها تعرف صوته. وأما الغريب فلا تتبعه لأنها لا تعرف صوت الغرباء»

(أنا هو الراعي الصالح)

والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف

(أنا الراعي الصالح)

وأعرف خاصتي وخاصتي تعرفني

خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتتبعني. وأنا أعطيها حياة أبدية ولن تهلك إلى الأبد ولا يحفظها أحد من يدي

(يوحنا ٩: ٤١ و١٩: ٢ ــ ٥ و١١ و١٤ و٢٧ و٢٨)

﴿ سر الرعاية ﴾

البَابُ الرَّابِعُ

(سرّ الرعاية)

إذا رجعنا إلى ختام الباب السابق رأينا حلقة الاتصال بين هذا وذاك لأن الخطوة الأولى هو الانضمام إلى حظيرة الخراف حيث الأمان التام وأما الخطوة الثانية فهي رعاية الراعي الصالح لرعيته. إذْ إننا في حاجة إلى أكثر من الوجود في أمان لأننا نحتاج إلى مخلص لينقذنا. نعم في المسيح بصفته باب الخراف يكون الإنسان محفوظاً في أمان وأما مع المسيح الراعي الصالح فيمكن للإنسان أن يرجع إلى العالم لكي يبحث عن ضالين آخرين ويقودهم إلى المسيح. أما كون الإنسان داخل الحظيرة ففي تلك الحالة له حياة وأما عندما يتبع الراعي إلى المرعى فيقال حينئذ إن له حياة فضلى. وما أعظم الفرق بين الحالتيْن

والآن لنأخذ خطوة جديدة فإننا قد رأينا في ما سبق أن سيدنا المسيح يشبه نفسه بالخبز ثم بالنور ثم بالباب وفي كل ذلك يدعو الخطاة للخلاص أعني للإيمان به كالخبز والنور والباب، أما الآن ففي كلامه هنا عن الراعي وخرافه يكلم الذين قد دخلوا الباب فصاروا في ملكوته

أيها الأخوة إن الله سبحانه وتعالى قد هيأكم من قديم الزمان حتى تشتركوا معنا فيكون لكم نصيب وافر وحظ عظيم من الأسرار التي أعلنها في أسماء سيدنا يسوع المسيح وألقابه. لأنكم يا أسيادي قد اعترفتم باحتياجكم إلى مرشد أو داع

وعندما تجدون راعياً حسب قلبكم تسلمون أنفسكم له وتخضعون له خضوعاً مطلقاً أولاً لمولى طريقتكم وبعده إلى الشيخ الذي يمثله وينوب عنه فيستطيع أن يلقنكم تعاليمه وأسراره ويوصلها إلى حياتكم اليومية، وكل مريد منكم متى شرع في سفره الباطني يخضع لمرشده خضوعاً تاماً، فلا يستصعب أمراً من أوامر الشيخ التي يعينها للمريد وذلك لأنه يعتقد أن الشيخ يعرفه معرفة تامة فأنت أيها الأخ تسلم نفسك إليه ــ على قول المثل ــ «مثل جثة ميتة بين يدي غاسلها» ــ وذلك لكي يطهرك من كل نجاسة، وبناء على ذلك تحتاج إلى مرشد مستقيم يحق الاعتماد عليه لأنك تثق به ثقة تامة وقت امتحان النفس على الأرض

أيها الإخوة إن الله سبحانه وتعالى الذي خلقنا جميعاً يعلم بما في قلوبنا وباحتياجاتنا إلى مرشد ينبغي أن يكون إنساناً مثلنا قد سلك هو بنفسه الطريق التي نسلكها بل في مشورة الله أيضاً

أن يكون ذلك المرشد أكثر من إنسان وأعلى من بني آدم ــ تأمل في ذلك ــ وانظر إلى الخراف لأنها ليست في أمان إذا تبعت الخراف الأخرى لكن أمانها في إتّباع الراعي فقط.

لذلك قد اختار الله سيدنا المسيح قبل أن يولد على الأرض وقد اجتمعت فيه الرعايتان (الرياستان) أعني اللاّهوتية والناسوتية لأنه قد «تعين ابن الله بقوة من جهة روح القداسة»[٢٨] بينما هو من جهة الجسد يُقال له «ابن الإنسان» وقال الله عنه بفم النبي إِشَعْيَاء «هوذا قد جعلته شارعاً للشعوب رئيساً وموصياً للشعوب»[٢٩] إنه هو القهار الحقيقي وإنما هو قهار ودادي لأنه كله محبة بمعنى الكلمة وحينما كان على الأرض وكان يدعو الواحد بعد الآخر قائلاً له «اتبعني» كان المدعو يقوم ويترك كل شيء ويتبعه

ولذلك نحن تلاميذه قد اخترناه دليلاً ومرشداً لنا نريد منكم أن تخضعوا فكركم وإرادتكم له مثل الخضوع الذي اعتدتم أن تخضعوه للشيخ ــ وهو إنسان نظيركم وإذا فعلتم ذلك فالمسيح يشبع شوقكم إلى مرشد بشري كامل قادر أن يفهمكم إلى التمام وأن يشرح لكم إرادة الله تعالى لأنه هو وحده يعرف الله معرفة تامة لأنه أتى من عند الله ولذلك قال لتلاميذه «معلمكم واحد المسيح وأنتم جميعاً أخوة»[٣٠]

حقاً إن سيدنا المسيح يعرفنا فوق كل معرفة إنسانية لأنه كلمة الله الذي به خلق كل شيء كما هو مكتوب في الكتاب المقدس «فإنه فيه خلق الكل ما في السموات وما على الأرض... وهو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل»[٣١]. ولذلك من جميع الذين عاشوا في هذه الأرض فهو وحده مستحق ثقتنا التامة أي أن نتكل عليه كلياً لأنه يعرفنا معرفة تامة

أيها الإخوة خذوا مثلاً بسيطاً، من منكم متى انكسرت ساعته يأخذها إلى الحداد ليصلحها له؟ ألا يأخذها إلى الساعاتي لأنه قد أصلح مئآت الساعات مثلها؟ طبعاً تفعلون ذلك. إذاً تعالوا إلى المسيح كلمة الله الذي كان مع الله منذ البدء

وبعد فنعلم من الكلام الذي أمامنا أن الراعي يعرف بالأخطار المحيطة بالخراف ومع ذلك فهو لا يخاف لأجلهم لكنه يدعوها بأسماء ويخرجها ومعنى ذلك أنه يذهب كل صباح باكراً إلى الحظيرة ــ حيث وجد الخروف بأمان ــ ويخرجها ويذهب أمامها في طريق البرية. ووجوده

---

[28] رومية ١: ٤ مع يوحنا ٥: ٢٧
[29] إِشَعْيَاء ٥٥: ٤
[30] بشارة متى ٢٣: ٨
[31] كولوسي ١: ١٦

معهم يطمئنهم كما قال لتلاميذه «قد كلمتكم بهذا ليكون لكم فيَّ سلام. في العالم سيكون لكم ضيق ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم»[32]

أيها الإخوة إذا قرأتم الإنجيل وسفر أعمال الرسل ترون أن هذه المواعيد قد تمت مع تلاميذ المسيح من الأول لأنه لم يعدهم قط بأن يعيشوا عيشة الراحة لأنه هو سلك طريقاً وعرة صعبة لا سهلة فكيف يسلك أتباعه طريقاً أسهل منه؟ كلا. إنه لا يدعونا إلى لذة شخصية بل بالعكس يطلب منا شجاعة وأمانة حتى الموت

ونرى في الفصل العاشر من رومية[33] توضيحاً وشرحاً لقوله «ويخرجها» إذ يقول بولس الرسول «إن اعترفت بفمك بالرب يسوع وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات خلصت لأن القلب يؤمَن به للبر، والفم يُعترَف له للخلاص، إن الكتاب يقول كل من يؤمن به لا يخزى». وقال سيدنا المسيح نفسه «من استحى بي وبكلامي.. فإن ابن الإنسان يستحي به متى جاء بمجد أبيه مع الملائكة القديسين»[34] نعم إن نتيجة هذا الاعتراف تكون أنكم تسلكون طريق العزلة والانفراد (أو الغربة) وكذلك طريق الفاقة والعار والاحتقار كما سلك المسيح نفسه. فاذكروا قوله «يذهب أمامها» (يوحنا ١٠: ٤) وقوله الآخر «يكفي التلميذ أن يكون كمعلمه والعبد كسيده»[35] فهو يكون رفيقاً لكم في طريق «الانفراد» الذي تسلكون فيه حسب وعده: «كل من يعترف بي قدام الناس أعترف أنا أيضاً به قدام أبي الذي في السموات» و«قدام ملائكة الله»[36] فإن كان هناك محل للأسف في يوم القيامة فلا نأسف إلا على أننا احتملنا معه قليلاً في هذه الحياة القصيرة التي في فرصتنا الوحيدة لإتباعه

أيها الأخ من أول خطوة في الطريق التي يدعوك المسيح لتسلك مع فيها ضع يدك بالإيمان في يده، ومع أنك لا تستطيع أن تراه دعه يراك بل ويتطلع في عينيك فيرى ما في قلبك، وسلم نفسك له بالتسليم المطلق الذي تعلمته في طريقة «الأخوية الصوفية» وذلك بدون أدنى خوف لأنه لا يمكن أن يغلط ولا يخطئ أبداً، فيتولد في قلبك شوق جديد وعجيب لتعرف إرادته واعلم أن إيمانك ومحبتك لا يتثبتان بالسلوك معه فقط بل بالشهادة له حتى تصير قادراً أن تجذب الآخرين ليطلبوا خلاصه

---

[32] يوحنا ١٦: ٣٣
[33] الرسالة إلى رومية ١٠: ٩
[34] بشارة مرقس ٨: ٣٨
[35] متى ١٠: ٣٥
[36] متى ١٠: ٣٢ ولوقا ١٢: ٨

وهذا الفصل العاشر من بشارة يوحنا يذكر لنا ما هي التجارب المتنوعة التي تصادف النفس التي تشرع في سلوك طريق الخضوع وهي موصوفة بأمثال الأخطار التي تحيط بالخراف

فمنها «الغريب» الذي يقلد صوت الراعي فينادي الخراف أعني أنه يخدعكم فيمنعكم من إتباع المسيح، على أنه محتمل أن يكون «الغرباء» هم أحبابكم أو أهل بيتكم لأن هؤلاء كثيراً ما يجتهدون أن يجذبوكم بعيداً عن المسيح كما هو مكتوب «وأعداء الإنسان أهل بيته»[٣٧] فمهما يكن هذا الغريب اهربوا منه

ثم يتكلم سيدنا المسيح عن خطر آخر يهدد الخراف وهو السارق فإن الشيطان ممثل باللص إذ يأتي سراً وبدون علم أحد ليسلب منا نعمة الله وسلامه وغرضه أن ينزع حياة الله من أنفسنا كما يقول المسيح «السارق لا يأتي إلاّ ليسرق ويذبح ويهلك» (بشارة يوحنا ١٠: ١٠)

ثم نجد خطراً آخر ممثلاً بالأجير الذي هو عبارة عن العالم الذي يحبنا وقت الفلاح والنجاح ويهملنا بل ويتجاهلنا وقت الضيق فما أجهل الخروف الذي يثق بهذا الأجير

وأخيراً يذكر لنا سيدنا خطر الذئب وهو يمثل لنا الضيقات الخارجية التي تأتي بشدة وعنف مثل الاضطهاد الذي يقع من قوات جهنم لكي تشتت وتبدد أتباع المسيح[٣٨] أما إذا تبعوا الراعي الصالح من قريب والتصقوا به فلا يخافون شيئاً حتى ولا الموت نفسه لأن سيدنا داود (عليه السلام) يقول في الزبور (المزمور ٢٣) الرب راعي فلا يعوزني شيء، وأيضاً إذا سرت في وادي ظل الموت لا أخاف شراً لأنك أنت معي. أما إذا وجدهم الذئب معتمدين على الأجير يعني على العالم فهم في أسوأ حال

والآن لنترك الغريب والأجير والذئب ونغض الطرف عنهم جميعاً ونلتفت إلى الراعي الصالح والخراف التي تبقى تحت عنايته وهذه الخراف هي «خاصته» ليس قهراً منه ولا كرهاً منهم ولكن لأنه اشتراهم بدم حياته الذي سفكه لأجلهم فلا يستطيع أحد أن يخطفهم من يده، وعوضاً عن السماع إلى صوت الغريب الخادع أو إلى زئير الذئب المخيف يسمعون صوت الراعي الصالح

ومعنى ما تقدم أنه يحب أن تتطلعوا برؤية القلب حتى يظهر لكم المسيح فتصغوا إلى التأثير الذي تؤثر به إرادته على إرادتكم بواسطة كلامه في الإنجيل الشريف لأن تلك البشارة

---

[37] بشارة متى ١٠: ٣٦

[38] يوحنا ١٠: ١٢

كُتبت لتكون واسطة المحادثة (المواصلات) بينه وبين أرواح شعبه، وروحه القدوس يذكركم بكلامه حسب احتياجك وكلامه يصبح سلاحاً لكم وترساً في الطريق كما قال داود النبي: «خبأت كلامك في قلبي لكي لا أخطئ إليك»[٣٩]. وكلما تتقدمون في إتباعه تصيرون كما قال الرسول: «مستأسرين كل فكر إلى طاعة المسيح»[٤٠] أما هذا الاستئسار فهو الحرية بعينها أو بعبارة أخرى التسليم التام لمشيئته يجعل رغبته رغبتنا وإرادته تصبح عين إرادتنا حتى إن «عشق» قلوبنا له يجعل إتباع طريقه سروراً وفرحاً ولو كان ذلك الطريق ضيقاً ووعراً في بعض الأوقات

وإذا تأملنا في الكلمات المُصدّر بها هذا الباب نجدها تقول «واعطيها حياة أبدية ولن تهلك إلى الأبد»

أما شرح هذا القول فستجده في الفصل التالي بإذن الله

---

[39] مزمور ١١٩: ١١
[40] كورنثوس ١٠: ٥

سر الفناء والبقاء

أو

الموت والحياة

«قالت مرثا ليسوع ــ يا سيد لو كنت هنا لم يمت أخي. لكني الآن أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله إياه.

قال لها يسوع سيقوم أخوكِ. قالت له مرثا أنا أعلم أنه سيقوم في القيامة في اليوم الأخير.

قال لها يسوع

أنا هو القيامة والحياة

من آمن بي ولو مات فسيحيا. وكل من كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد»

(يو ١١: ٢١ ــ ٢٦)

سر الفناء والبقاء

أو

الموت والحياة

الباب الخامس

(سر الفناء والبقاء أو الموت والحياة)

إن معنى الكلمات المقتطفة من بشارة يوحنا لا تظهر للقارئ الكريم إلاَّ وهو يتذكّر المكان الذي نطق المسيح بها فيه

كان رجل اسمه لعازر مريضاً جداً فمات ودُفن في القبر قبل وصول سيدنا المسيح بأربعة أيام مع أن أختيْه كانتا قد أرسلتا إلى المسيح خبر مرض أخيهما ويسوع (أي سيدنا المسيح) كان يحب لعازر محبة شديدة لأنه هو وأختاه كانوا كلهم من أتباع يسوع. وقد امتلأ قلبا الأختيْن حزناً وشكاً لأن المسيح ترك أخاهما ليموت بدون أن يشفيه ولم يعلما طبعاً أنه كان ينوي أن يجري معجزة أعظم من معجزة الشفاء يعني إقامة الميت من القبر بعد دفنه، فحينما أتى المسيح إلى بيت عنيا[٤١] وجد مريم ومرثا (الأختيْن) تبكيان على أخيهما فبكى يسوع معهما وشاركهما في حزنهما

وحالما أتى إلى القبر ولم يكن أمامه سوى قبر داخله جثة رفع عينيه إلى فوق وشكر الأب لأنه قد سمع له ثم صرخ بصوت عظيم قائلاً «لعازر هلمّ خارجاً»: ففي الحال سلّم الموت فريسته (غنيمته) و«خرج الميت ويداه ورجلاه مربوطات بأقمطة ووجهه ملفوف بمنديل فقال لهم يسوع حلوه ودعوه يذهب[٤٢] وهكذا خرج لعازر حياً في وسطهم. أترى أن لعازر حزن لأن مرضه قد آل إلى الموت؟ كلا بل إنه خرج إلى نور وحرارة الشمس بفرح وبشكر عظيم ورأى وجه المسيح حبيبه

أما قول السيد المسيح إنه هو القيامة والحياة فله معنى آخر أعمق من قيامة الجسد وهذا المعنى قد تفهمونه أيها الأخوة يا أهل الطريقة لأنكم تطلبون الفناء الذي يؤول إلى البقاء والحياة الأبدية حسب القول الصوفي «موتوا قبل أن تموتوا» وذلك لكي تشتركوا في حياة الله أعني الحياة الروحية

والسبب الذي لأجله تطلبون هذا الفناء هو معرفتكم واختباركم أن الحياة الجسدية الطبيعية التي ورثناها من أبينا آدم لا تؤتينا (لا تنيلنا) الحياة الأبدية كما هو مكتوب في الكتاب المقدس «إن

---

[41] بيت عنيا اسم بلدة صغيرة قريبة من القدس الشريف

[42] يوحنا ١١: ٤٣ و٤٤

لحماً ودماً لا يقدران أن يرثا ملكوت الله ولا يرث الفساد عدم الفساد»[43] ونرى في التوراة من أولها إلى آخرها ــ سواء في أيام نوح أو إبراهيم أو موسى أو سليمان ــ نرى حقيقة واحدة واضحة جداً وهي أن كل مقامة (مرحلة) لامتحان البشر انتهت بالخيبة حتى أنه ثبت بالبرهان أنه لا أمل في تجديد الطبيعة البشرية وأولى بنا أن نعترف بذلك لعلمنا «إن النفس أمارة بالسوء»

لذلك أيها الإخوة تشتاقون لأن تجدوا طريقة بها تميتون هذه الطبيعة الفاسدة برغباتها وشهواتها حتى تستطيعوا أن تخرجوا منها كأنه بولادة جديدة روحية كما تزرع الحبة في الأرض فتموت وتفنى لكن الغرس الجديد ينبت منها بأزهارها وأثمارها.

لعلكم اجتهدتم كل الاجتهاد للوصول إلى الفناء بأساليب (طرق) كثيرة للغلبة على النفس الأمارة بالسوء وذلك بواسطة الصوم والعزلة (استعمال الخلوة) لكنكم لم تنجحوا لأن رغائب النفس والأهواء العالمية كلها باقية فيكم وحالما تعيشون العيشة العادية بين الناس (إذا اضطرتكم أحوالكم أو ظروفكم) حالما تضطرم نار الشهوات فيكم[44].

لكن الله جل جلاله عليم بأحوالكم واجتهادكم فهو تبارك اسمه يقدم لكم سراً عجيباً وهذا السر مذكور في الإنجيل الشريف وهو أنه قد عين المسيح ليكون هو واسطة الفناء الحقيقي الذي يؤدي بنا إلى الحرية والحياة الأبدية. وتفصيل الخبر أن الله عينه (جعله) رأساً جديداً للجنس البشري ليس رأساً لحياتهم الجسدية مثل أبينا آدم بل للحياة الروحية كما هو مكتوب: «صَارَ آدَمُ الإِنْسَانُ الأَوَّلُ نَفْساً حَيَّةً وَآدَمُ الأَخِيرُ رُوحاً مُحْيِياً»[45] وحمل المسيح إلى القبر كل خطايا وعيوب الجنس البشري وأفناها من أمام الحضرة الإلهية وكسر قيود الموت ثم قام من القبر حياً في اليوم الثالث وصار رأساً لنسل جديد بحياة منعزلة تماماً عن الحياة الفانية الموروثة من آدم كما هو مكتوب: «وهو رأس الجسد الكنيسة (أي شعبه) الذي هو البداءة بكر من الأموات لكي يكون هو متقدماً في كل شيء[46]

وأما الذين يقبلونه بالإيمان فيحسبهم الله كأعضاء جسد المسيح الروحي المشتركين في الحياة الأبدية حياة آدم الثاني الذي هو الرب من السماء وكما قال المسيح نفسه «الذي يسمع كلامي

---

[43] أول كورنثوس ١٥: ٥٠

[44] [أما إذا أتممتم سعيكم ونجحتم فعلاً بإماتة كل الرغبات الطبيعية فمثل هذا النوع من الفناء يُعد «فناءً كاذباً» لأنه لا يؤدي إلى البقاء] (المعرب)

[45] أول كورنثوس ١٥: ٤٥

[46] كولوسي ١: ١٨

ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة»[٤٧] هكذا بالإيمان ننتقل في نظر الله من عشيرة آدم الأول إلى عشيرة آدم الثاني الذي جاء ليبطل كل ذنب آدم الأول ويسترد كل ما قد فقده وهكذا نستطيع أن نقف أمامه تعالى مقبولين عنده «في المحبوب»[٤٨] هذا هو الانتقال الأول بواسطة صليب المسيح وقيامته أعني أننا ننتقل من الموت إلى الحياة الأبدية معه

على أن الخلاص الذي أوجده لنا المسيح له معنى آخر وتفسير أعظم من تغيير مركزنا أمام الله، فإنه كشف السر عن معنى انتقال أرواحنا من حياتنا القديمة المبنية على «حب الذات» إلى حياتنا الجديدة حياة البر والتقوى

أيها الأخوة إنكم قد سعيتم قبل الآن للتفتيش على طريقة للخروج من حياتكم القديمة وذلك بدون المسيح ولكنكم كنتم سائرين وراء «سراب» في الصحراء فعند الاقتراب منه لم تجدوا شيئاً غير الرمل، وأما في المسيح فيمكنكم أن تجدوا الحقيقة لأنكم باتحادكم معه بموته تصيرون منفصلين عن حياتكم الماضية كما هو مكتوب. «لأن الموت الذي ماته قد ماته للخطية مرة واحدة والحياة التي يحياها فيحياها لله كذلك أنتم أيضاً احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطية ولكن أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا»[٤٩]

ومعنى هذا الكلام إننا نسلم حتى الموت (أي تسليماً تاماً) كل الطبيعة النفسانية التي ورثناها من أبينا آدم مع كل شهواتها فنتركها بنية القلب في قبر المسيح كأنها شيء منبوذ لا يتسلط علينا فيما بعد، وغير ممكن أن نصل إلى هذه النتيجة في حالة الوجد والانفعال بل بحالة الهدوء، وإذا فعلنا ذلك فإن الله تعالى يجري معجزة عظيمة في تخليصنا من النفسانية. والأمور العالمية تفقد جاذبيتها فلا تجذبنا فيما بعد وحينئذ تتجه أميالنا ورغائبنا نحو الروحيات والسمويات كما هو مكتوب: «إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة الأشياء العتيقة قد مضت هوذا الكل قد صار جديداً»[٥٠] هذا هو الفناء الحقيقي والبقاء الحقيقي ــ هذه هي خسارة المسيحي لكل الأشياء المادية أعني إضاعتها ــ هذا هو جناز الدفن[٥١] لكل ما هو ليس من الله

---

[47] يوحنا ٥: ٢٤
[48] أفسُس ١: ٦
[49] رومية ٦: ١٠ و١١
[50] كورنثوس ٥: ١٧
[51] يقول بعضهم «التكبير» (وقت المشهد)

ولكي يظهر هذا التعليم صريحاً جداً بين تعاليم الإنجيل فقد أمر سيدنا المسيح أن كل الذين يقبلونه يجب أن يعترفوا به جهاراً وذلك بواسطة فريضة (طقس) المعمودية، والطريقة الكاملة لإتمام هذه الفريضة أن المريد (التلميذ) ينزل في ماء النهر أو البحر أو الحوض ومرشده (وراعيه) يغطسه في الماء ممثلاً الدفن مع المسيح فيقوم التلميذ من الماء بنية أن كل أميال الجسد قد ماتت ودُفنت وأما الروحيات فهي تحيا للبر بقوة روح الله

هذا ليس معناه إن ارتكاب الخطية مستحيل علينا كلا ولكن معناه أن النصرة على الخطية قد صارت ممكنة الآن مهما سادت الذنوب علينا في الماضي وللدليل على صحة قولنا نأتي بشهادة الإنجيل حيث قال: «شكراً لله الذي يعطينا الغلبة بربنا يسوع المسيح»[٥٢]

وكلما ثبت المريد بهذه النية وهذا الإيمان فبقوة الله يموت للذنوب يوماً فيوماً وتظهر فيه حياة المسيح يومياً ويتجدد بالفكر والقول والفعل لمجد الله. تأملوا في البزرة كيف تدفن في الأرض مرة واحدة لكنها تهلك وتموت موتاً تدريجياً لكي تطلق الحياة الجديدة ومثل هذه البزرة مثل طبيعتنا الجسدية (النفسانية) فإنها تسلم للموت مرة واحدة لكن لا تظهر تخليتها (إماتتها) إلاّ بالتدريج بواسطة أحوال حياتها اليومية حتى نتحرر تماماً من قوة تسلطها علينا[٥٣]

تأملوا أيها الإخوة في كلامنا الأخير المأخوذ من الفصل الحادي عشر من بشارة يوحنا تجدوا فيه حلاً آخر لهذا السر العظيم أعني سر نصرة المسيح على الموت وهو قوله له المجد «من آمن بي ولو مات فسيحيا وكل من كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد»

فلنا هنا في هذا الكلام وعد أكيد بنصرة عظمى في المستقبل يُقال له «فناء الفناء» أو زوال الموت أو بعبارة أخرى «ابتلاع الموت إلى غلبة» وهذا يتم بفداء الجسد الذي هو تكملة ضرورية لفداء الروح والنفس حتى يُقال عنا «نعتق من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله»[٥٤]

وكلمات المسيح المذكورة تبين لنا الطريقتيْن اللتيْن يتم بهما الانتقال من الأرضيات إلى السمويات عند رجوعه إلى الأرض (مجيئه الثاني) فالجزء الأول من الوعد سيتم لجمهور عظيم من المؤمنين يوم مجيئه به وهو قوله: «من آمن بي ولو مات فسيحيا» لأن الراقدين بالمسيح في

---

[52] ١ كورنثوس ١٥: ٥٧

[53] إنه مستحسن جداً أن يتناول القارئ الكريم الكتاب الصغير المدعو «مجاهدة النفس» فإنّه يشرح إماتة الجسد تماماً (يُطلب من مطبعتنا)

[54] رومية ٨: ٢١

كل الأجيال الماضية سيقومون عندما ينادي خاصته في يوم القيامة الأولى[55] والأجساد التي زُرعت «جسماً حيوانياً» ستقام «جسماً روحانياً»[56]

لكن في ذلك اليوم عينه سيتم الجزء الثاني من الوعد إذْ يقول الرب «وكل من كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد» لأنه حينئذٍ يتم قول بولس الرسول: إن الرب نفسه بهتاف صوت رئيس ملائكة وبوق الله سوف ينزل من السماء والأموات في المسيح سيقومون أولاً ثم نحن الأحياء الباقين سنخطف جميعاً معهم في السحب لملاقاة الرب في الهواء وهكذا نكون كل حين مع الرب»[57]... وقوله «لا نرقد كلنا ولكننا كلنا نتغير في لحظة في طرفة عين عند البوق الأخير فإنه سيبوق فيقام الأموات عديمي فساد ونحن نتغير، حينئذ تصير الكلمة المكتوبة أُبتلع الموت إلى غلبة»[58]

هذا هو «عين الجمع» أو التجلي الذي ينتظره تلاميذ المسيح الحقيقيون فهم يترقبونه بكل قلوبهم يوماً بعد يوم

لكن أولئك الذين قد انتقلوا بأرواحهم معه من الموت إلى الحياة في هذه الدنيا هم فقط الذين سيشتركون معه في ذلك الانتقال المقبل المجيد ــ «لذلك كونوا أنتم أيضاً مستعدين لأنه في ساعة لا تظنون يأتي ابن الإنسان»[59]

---

[55] رؤيا ٢٠: ١٦
[56] ١ كورنثوس ١٥: ٤٤
[57] ١ تسالونيكي ٤: ١٦ و١٧
[58] ١ كو ١٥: ٥١ الخ
[59] بشارة متى ٢٤: ٤٤

«لا تضطرب قلوبكم. أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي. في بيت أبي منازل كثيرة وإلاّ فإني كنت قلت لكم

أنا أمضي لأعدّ لكم مكاناً

وتعلمون حيث إنا ذاهب وتعلمون الطريق. قال له توما يا سيد لسنا نعلم أين تذهب فكيف نقدر أن نعرف الطريق؟

قال له يسوع

أنا هو الطريق والحق والحياة

ليس أحد يأتي إلى الآب إلاّ بي»

(يو ١٤: ١ و٢ و٤ ــ ٦)

سر المجاوزة

في

سبيل الله

الباب السادس

سر المجاوزة في سبيل الله

يعني

التقدم في إدراك الأسرار

إننا في أبحاثنا السابقة عن إعلان المسيح قد تتبعنا الحوادث الرئيسية ــ والمقامات المهمة ــ في حياته وعمله، فأولاً قد رأيناه في تجسده كالخبز النازل من السماء، ثم ككونه نور العالم يكشف لنا عن الله بحسب ما نستطيع فهمه، وفي تمثيله بباب رأينا كيف أبطل الخطية بذبيحة نفسه[٦٠]، وفي تمثيله بالراعي الصالح تعلمنا كيف ندخل الباب ونصير خرافه الخاصة، وفي تسميته بالقيامة والحياة يعلمنا كيف ننال بقيامته من الموت خلاصاً روحياً، والآن قد وصلنا إلى الكلام الذي على رأس هذا الباب وهو من ضمن الكلام الذي قاله لتلاميذه عندما كان يوضح لهم أنه سيرجع إلى مجده السموي الأصلي. وفعلاً انطلق إلى السماء بعد قيامته بأربعين يوماً عندما كان تلاميذه مجتمعين خارج أورشليم (وهي مدينة القدس الشريف) «ورفع يديه وباركهم وفيما هو يباركهم انفرد عنهم وأصعد إلى السماء»[٦١]

وحدث هذا الحادث إتماماً لقوله السابق «أنا ماضٍ إلى الذي أرسلني»... خرجت من عند الآب وقد أتيت إلى العالم وأيضاً أترك العالم وأذهب إلى الآب»[٦٢]

وحينما فهموا منه أنه سيتركهم سألوه قائلين «لسنا نعلم أين تذهب فكيف نقدر أن نعرف الطريق» ــ وجواب المسيح على هذا السؤال يأتي بنا إلى السر السادس من الأسرار السبعة وهو قوله لهم «أنا هو الطريق والحق والحياة»

أيها الإخوة الصوفيون يوجد في قوله هذا خبر يخصكم أنتم لأنكم تعلمون أن ثلاثة من أغراضكم ومقاصدكم هي: ــ أن تتبعوا الطريق وأن تعرفوا الحق وأن تحيوا حياة الله

والمسألة الهامة هي كيف تستطيعون أن تتقدموا خطوة فخطوة في «مجاوزة المقامات» حتى تصلوا أخيراً إلى هذه الأغراض وفكر التقدم هذا مرتبط بقلب الأخوية

---

[60] عبرانيون ٩: ٢٦
[61] بشارة لوقا ٢٤: ٥٠
[62] يوحنا ١٦: ٥ و٢٨

إن الله عالم بما في قلب بني آدم من حب الترقي لأنه خلقه بهذه الرغبة في التقدم ولذلك فقد أعطانا في المسيح كل ما نرغبه وقد أعطى إلى المسيح القوة التي بها يجذبنا إلى حيث يكون هو حسب صلاته المشهورة «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا»[٦٣]

تأملوا الآن في هذه الألقاب الثلاثة التي لقب المسيح نفسه بها فهي مرتبطة مثل حلقات السلسلة، فقوله:

«أنا هو الطريق» يدل على وجود طريق ممهد (حاضرا وجاهز)

و«أنا هو الحق» يشير إلى النور الذي يبين الطريق

و«أنا هو الحياة» معناه القوة للسير في ذلك الطريق

والطريق يدل على التقدم لأن السالك يترك وراءه شيئاً بعد شيء حتى يصل إلى نقطة جديدة

وكذلك الحق يدل على التقدم لأننا كما في المعارف الأرضية ــ نتمسك بحقائق جديدة ونربطها بالحقائق التي عرفناها من قبل

والحياة أيضاً تدل على التقدم لأن كل حياة تعني نمواً أي ظهور قوات جديدة حتى الوصول إلى البلوغ

إلا إنه عندما نتعمق في هذه الكلمات الثلاث نرى أنها لا تدل على تقدم متواتر مثل ترتيب الإنسان يعني مثلاً إن المقامة الواحدة تعقب المقامة الأخرى بكيفية لا تقبل التبديل والتغيير كلا بل انظر الفرق مثلاً بين السلم الذي يصنعه ابن آدم وبين الشجرة التي يعملها المولى تبارك اسمه، وهكذا تختلف طرق الإنسان ونظاماته (نُظُمه) عن طرق الله التي فيها تنشأ (أو تنبت) درجة عن التي سبقتها مستمدة منها الحياة والحرية ــ مثل نمو أغصان الشجرة ــ ولا يتقدم تلميذان مثل بعضهما، لأن الطريقة التي عينها الله لتقدمنا هي أن نعرف سيدنا يسوع المسيح معرفة شخصية[٦٤] ــ ليس أن نعرف عنه بعض الأمور بل أن نعرفه شخصياً ــ وهو يملأ افتراغنا (فراغنا) بملئه[٦٥]. فحينما نشعر بأننا ضالون وهالكون وأموات بدون المسيح ففي تلك اللحظة نستعد لقبول

[63] يوحنا ١٧: ٢٤

[64] انظر يوحنا ١٧: ٣

[65] «فيملأ إلهي كل احتياجكم بحسب غناه في المجد في المسيح يسوع» (فيلبي ٤: ١٩)

فحينما نشعر بأننا ضالون وهالكون وأموات بدون المسيح ففي تلك اللحظة نستعد لقبول سره الجديد «أنا هو الطريق والحق والحياة»

تأملوا قليلاً في كلماته «أنا هو الطريق» فهذه لا تدل على سلسلة قوانين صعبة ينبغي أن تطاع بل إنها تدل على طريق حي جديد طريق محبة حية، ولزيادة الإيضاح لنضرب لكم مثلاً: ولد صغير ضل في غابة فذهب أخوه الأكبر ليفتش عليه فوجده وأركبه على منكبيه (كتفيه) ليعبر به السبيل ثم حمله للدار، فماذا كان فكر الولد الصغير؟ إنه لم يتعب نفسه في التفتيش على الطريق بل شعر أن الواجب عليه أن يتمسك بمنكبي أخيه الأكبر وأخوه يوصله بأمان فلا يعود يسلك في مسلك وعر بل تبقى قدماه دافئتيْن لأن أخاه الأكبر قابض عليهما، فليس أخوه مرشده للطريق بل إن أخاه هو نفسه الطريق

هكذا قول المسيح له المجد «أنا هو الطريق» لا يدل على وجود مقامات في طريقنا بل يدل على أن مخلصنا العجيب هو نفسه طريقنا فليس عليك أيها الأخ إلاّ أن ترمي نفسك بين ذراعيه وأن تتوكل عليه

وهكذا الحال في الجزء الثاني من إعلان سر التقدم وهو قوله «أنا هو الحق». فالحق واحد أبدي لا نهاية له غير متغير لا تبديل له وإنكم تزعمون أيها الإخوة أن البحث عن الحق يحتاج إلى زمن مديد وأن قليلين قادرون أن يقولوا إنّهم وصلوا إليه أو أدركوه أما نحن الذين وجدنا المسيح فنحن نعترف بأنه هو الحق اليقين كما أنه الطريق أيضاً فنستطيع أن نطمئن به

لنضرب لكم مثلاً من علم الجبر الذي اكتشفتموه أنتم العرب منذ زمان طويل، فإنكم بهذا العلم قد تعقبتم حقيقة الأعداد بواسطة مسائل كثيرة ولكنكم عندما وجدتم الحقيقة صرتم مطمئنين لأنكم رأيتم الجواب على كل سؤال وحينئذٍ لم تعرضوا سؤالاً آخر لأنكم شعرتم بأنكم في أمر الأعداد قد وجدتم الحقيقة

وهكذا حينما تجد النفس المسيح تزول جميع المسائل التي كانت قد أقلقت راحتها لأنه هو عطية الله التي لا يعبر عنها ــ عطية اليقين ــ فهو ينادي الذين أتعبوا أنفسهم بالأبحاث الكثيرة قائلاً «تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم»[66] تعالوا إليه أيها الإخوة كما يجيء المسافرون في الصحراء إلى البئر أو مثلما تأتي السفينة وتلقي مرساتها في الميناء لأنه هو الحق

[66] متى ١١: ٢٨

وإنما ليس الحق حقيقة خالدة في العالم الروحي فقط بل لها علاقة مع الحقائق اليومية التي تهمنا في هذه الحياة وبهذه العلاقة نتقدم في معرفة الحق كما قال المسيح له المجد «إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق... لأنه يأخذ مما لي ويخبركم»[٦٧]

وكما أن الشمس الواحدة تظهر لنا مثل ألف شمس بقوة شعاعها المنعكس في موجات الماء يوم الصحو هكذا المسيح الواحد مع ألقابه. فاللقبان ــ الطريق والحق ــ مرتبطان معاً لأن النور في الطريق مثلث الفائدة يرينا الأمور التي تركناها وراءنا والأمور التي حولنا الآن والأمور التي لا تزال أمامنا فالمسيح يعلن لنا كل الأمور التي تضرنا فيجب أن نتركها خلفنا حينما نسرع متقدمين في الطريق. فبعض الأفكار والعادات ظهرت لنا في الأول كأن لا ضرر فيها ثم زاد نورنا فظهرت العادات كأنها مشتبه فيها أعني أنها تحتمل الشك وأخيراً أضاء المسيح طريقنا أكثر فأكثر فأرانا أن الواجب علينا أن نترك هذه الأمور، وهكذا ينير هذا الحق عينه الخطوة التي أمامنا فالتالية التي بعدها» الخ، وكل شيء يتوقف على رغبتنا في رؤية مسافات من الطريق يفتح أمامنا بينما الأمور العتيقة تزول وتضمحل

والآن نتأمل في اللقب الثالث «أنا هو الحياة». قلنا إن الصوفي يبحث عن طريق الله ويريد أن يعلم حق الله لكنه يرغب أيضاً في أن يشترك في حياة الله، وهو مصيب في هذه الرغبة لأننا نحتاج إلى قوة فوق قوتنا لتحفظنا في الطريق كلما انكشف أمامنا ولأن نستعد أن نقبل الحق كلما انجلى. ففي قول المسيح «أنا هو الحياة» نرى الزاد للطريق (المؤونة) لأجل تجديد القوة في التقدم حسب دعوة الله العليا حتى نصل إلى المكان الذي قال عنه سيدنا المسيح «أنا أمضي لأعدّ لكم مكاناً... وَآخُذُكُمْ إِلَيَّ حَتَّى حَيْثُ أَكُونُ أَنَا تَكُونُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً»[٦٨]

إن حياة المسيح في الأزلية سببت بفيضها خلق كل الموجودات كما هو مكتوب: فإنه فيه خُلق الكل ما في السموات وما على الأرض ما يرى وما لا يرى... الكل به وله قد خلق الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل»[٦٩]

ومع أنه وجد في الهيئة كإنسان وأخلى مجده الأصلي مدة الثلاث والثلاثين سنة التي صرفها على الأرض إلاّ إن حياته لا زالت فائضة بغاية القوة لشفاء الأمراض الجسدية ولإخراج

[67] يوحنا ١٦: ١٢ ــ ١٤
[68] يوحنا ١٤: ٢
[69] كولوسي ١: ١٦

الأرواح النجسة (الشياطين) التي تفسد فتهلك العقل. وبعد ارتفاعه إلى السماء أرسل من هناك فيض روح الحياة لينيرنا ويطهر قلوبنا من الخطية المهلكة وينصرنا حتى نستطيع أن نقول مع الرسول بولس: «مع المسيح صُلبتُ فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ»[٧٠] وأيضاً «لأن لي الحياة هي المسيح»[٧١] «المسيح حياتنا»[٧٢]

أخيراً تأملوا في الكلمات الختامية: «ليس أحد يأتي إلى الآب إلاّ بي» وهذه تشير أولاً إلى ارتفاعه إلى عرشه عن يمين الله. وثانياً إلى أنه لا يكون لأحد حق الوصول إلى الآب إلاَّ باسمه هو لأنه هو شفيعنا لدى الله الآب «وليس بأحد غيره الخلاص لأن ليس اسم آخر تحت السماء قد أعطي بين الناس به ينبغي أن نخلص»[٧٣]

ثم سنصل أخيراً الوصول الحقيقي يعني أننا نصل إلى «الغاية المستوعبة» كما تسمونها وهي الغرض النهائي وحينئذ سيظهر سيدنا ومخلصنا المسيح في مجده البهي ويحرق كل الزغل (الباطل) الموجود فينا وعندئذ «نكون مثله لأننا سنراه كما هو»[٧٤] ثم تكمل كنيسته (جماعة المؤمنين الخالصين) وتوقف «أمام مجده بلا عيب في الابتهاج»[٧٥]

وهذا يأتي بنا إلى ذكر سر فيض حياته ليعدنا ليوم مجيئه الثاني الذي هو رجاؤنا العظيم

---

[70] غلاطية ٢: ٢٠
[71] فيلبي ١: ٢١
[72] كولوسي ٣: ٤
[73] أعمال: ٤: ١٢
[74] أول يوحنا ٣: ٢
[75] رسالة يهوذا ٢٤

أعظم الأسرار

«أنا الكرمة الحقيقية وأبي الكرام كل غصن فيَّ لا يأتي بثمر ينزعه وكل ما يأتي بثمر ينقيه ليأتي بثمر أكثر

اثبتوا فيَّ وأنا فيكم كما أن الغصن لا يقدر أن يأتي بثمر من ذاته إن لم يثبت في الكرمة كذلك أنتم أيضاً إن لم تثبتوا فيَّ

أنا الكرمة

وَأَنْتُمُ الأَغْصَانُ الَّذِي يَثْبُتُ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ هَذَا يَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ لأَنَّكُمْ بِدُونِي لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئاً

إن ثبتم في وثبت كلامي فيكم

تطلبون ما تريدون فيكون لكم. بِهَذَا يَتَمَجَّدُ أَبِي أَنْ تَأْتُوا بِثَمَرٍ كَثِيرٍ فَتَكُونُونَ تلاَمِيذِي»

(يو ١٥: ١ و٢ و٤ و٥ و٧ و٨)

﴿ باب سر الثبوت ﴾

الباب السابع

(باب سر الثبوت)

في هذه السبعة الأسرار التي كشفتها أقوال المسيح قد رأينا حقيقة واحدة يقال لها «مركز الدائرة» وهي أن سيدنا المسيح استرجع لنا مرة ثانية حياة الله التي كنا فقدناها بسقوط أبينا آدم في العصيان

فأولاً رأينا المسيح كخبز الحياة ليشبع قلوب البشر وثانياً كنور الحياة لينير أذهانهم وبصائرهم وبعد ذلك كالقيامة والحياة ليصيرهم خليقة جديدة، وفي الباب السادس تأملنا في كيف يهب المسيح نفسه لشعبه بواسطة سكب الروح القدس بعد صعوده إلى السماء حسب وعده لتلاميذه «أقول لكم الحق إنه خير لكم أن انطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي ولكن إن ذهبت أرسله إليكم»[٧٦]

أما كيفية انسكاب الروح القدس فبعد انطلاق المسيح اجتمع التلاميذ معاً بنفس واحدة يوماً بعد آخر وعددهم نحو مائة وعشرين وهؤلاء كانوا يواظبون على الصلاة والطلبة حسب أمر المسيح لهم: «أقيموا في أورشليم إلى أن تلبسوا قوة من الأعالي»[٧٧]. وفي صباح اليوم العاشر بعد صعوده وهم مجتمعون أنزل عليهم روحه بفيضان القوة فامتلأوا شجاعة وحكمة ومحبة فخرجوا في الحال ليبشروا الشعب بالمسيح فآمن به في ذلك اليوم ثلاثة آلاف نفس وانضموا إلى جماعتهم

ومن ذلك اليوم فصاعداً قد سكن الروح القدس بين المؤمنين الذين قد قبلوا أن يمتلئوا به بحسب مقياس استعدادهم للخضوع إلى سلطته لأن الوصية ــ امتلئوا بالروح ــ هي لكل واحد من تلاميذ المسيح

ولنا في هذا الباب الأخير مثالة تمثيلية عظيمة الفائدة وهي صورة الكرمة التي تجري عصارتها[٧٨] في كل غصن من أغصانها الملتصقة بساقها حسب قول الإنجيل «من التصق بالرب فهو روح واحد»[٧٩]. ففي هذا الكلام نجد عبارة تسد شوق كل صوفي ظمآن يشتاق إلى الاتصال الباطني مع الله الذي هو غرض الإنسان الأسمى وفي التمثيل بالكرمة والأغصان نجد توضيح

---

[76] يوحنا ١٦: ٧
[77] لوقا ٢٤: ٤٩
[78] العصارة هي ماء الشجرة ويُقال لها في بعض الجهات «الماويَّة»
[79] أول كورنثوس ٦: ١٧

الطريق إلى هذا الاتصال حتى في هذه الحياة الدنيا، لأنه كما تملأ العصارة «الماوِيَّة» كل ألياف الغصن مهما كانت صغيرة وتحييها بحياة الساق حتى أصغر عسلوج (فرع) هكذا هو قصد الله أن نتصل بالحياة الإلهية ونتحد معها بواسطة حلول روح الله فينا. وهذا الاتحاد ليس هو نتيجة مجهودات نجهدها لإحداث «وَجْد» فينا بل بقبول وعد الروح القدس بالإيمان والهدوء، ولا يوجد شيء أهدأ «أكثر سكوناً» من المجرى الذي يجري فيه ماء الشجرة وهكذا مع قلوبنا فإنها لا تحتاج إلى شيء من التهيج

أيها الإخوة ــ تأملوا نوعاً في عبارة الكلمة «التصق بالرب» ومعناها اتحد بالرب ــ كيف يحدث هذا الاتحاد مع المسيح؟ نقول: ــ كيف يصير غصنٌ غصناً في كرمة أخرى؟ لا يتم ذلك إلاَّ بالتطعيم فيجب أن يفصل الغصن من الكرمة الأولى ويثبَّت في موضع من ساق الكرمة الثانية مكشوطاً قشره و«مجروحاً» ويربط فيه فيجري عصير الكرمة من موضع الجرح إلى الغصن المطعَّم فيه فيتحد به ومن ثم يجري في ألياف الغصن المطعم إلى أن يتحد فيه اتحاداً تاماً فلا يعود يحتاج إلى الرباط الخارجي لأنه قد صار واحداً مع الكرمة فتجري قوة الكرمة وحلاوتها في الغصن الجديد الذي نستطيع أن نقول عنه «أضاع حياته ليجدها ثانية» ثم يورق فيزهر فيثمر

أيها الأخ العزيز اقرأ هذا السر مرة أخرى واعرف أنه ينبغي أن تقبل أن تقطع كل الماضي وتنفصل عنه انفصالاً كلياً مثل الغصن الذي يقطع من شجرته الأصلية ليطعم في كرمة جديدة ومعنى ذلك أن تتوب توبة قلبية عن حياتك القديمة التي ورثتها من آدم بكل شهواتها وأغراضها الباطلة وتعترف بذنوبك الماضية واعترافك بخطيتك إنما هو بصفة سكين يقطع الغصن ويفصله ثم تتخذ قلب سيدنا المسيح المجروح لأجلك وبدمه المسفوك عنك ملجأ ومسكناً لك فيجب عليك أن تتوطن في ذلك الملجإ حتى يصير مسكنك الحقيقي كما تتوطن الأغصان المطعمة في الكرمة مستمدة منها الحياة الجديدة

فترى أيضاً أن اتحاد روح الإنسان بالمسيح ــ أو الالتصاق الروحي ــ ليس بطريق طويل فلا يحتاج الأمر إلى تدرج طويل بل إنه في أغلب الأحيان يتم بفعل سريع ولكن القلب يواظب على التمسك به إلى أن يصير صفة لازمة من صفاته لأن إلهنا هو إله المعجزات السريعة في العالم الروحي مثل معجزاته في العالم الطبيعي. لكن الإنسان بعزمه وحده يتقدم متعباً.

وفي تمثيل الحياة الجديدة الفائضة من الكرمة إلى الغصن نرى الفرق العظيم بين «البقاء» الذي كنتم تطلبونه قبلاً وبين الحياة الدائمة (الأبدية) المعلنة في الإنجيل المقدس لأن البقاء حسب

اعتقادكم هو الحد الأقصى النهائي للطريق وأما هبة الحياة الأبدية حسب الإنجيل فهي تعطى في بداءة الطريق وإن بقينا أمناء لدعوتنا السموية فبقية أيامنا في هذه الدنيا إنما هي إظهار الحياة الإلهية التي تزداد فينا أكثر فأكثر

«اثبتوا فيَّ»: هذه العبارة وردت مرات عديدة فهي زبدة تعليم المسيح ولا يخفى حضراتكم بأن ليس كل غصن يلتصق بالكرمة. ألم تروا مراراً كثيرة غصناً يظهر بالأول أنه مرتبط بالكرمة ارتباطاً متيناً لكن الأيام تبين أن ارتباطه ليس سوى ارتباط خارجي فعندما ينحل الرباط يقع الغصن الميت فلا يصلح لشيء إلا أن «يطرح خارجاً..... فيجف ويجمعونه ويطرحونه في النار فيحترق» (يوحنا ١٥: ٦) فيقال عنه إن «فرصته فاتت». كذلك يوجد أناس هم أعضاء في كنيسة المسيح حسب الظاهر لكنهم لم يلتصقوا بالمسيح فقد قال سيدنا عن مثل هؤلاء «يؤمنون إلى حين وفي وقت التجربة يرتدون»[٨٠] ولذلك نجد بولس الرسول يقول لتلميذه تيموثاوس «امسك بالحياة الأبدية»[٨١] وكذلك نقرأ عن برنابا أنه «وعظ الجميع أن يثبتوا في الرب بعزم القلب»[٨٢]

أما الخطر العظيم الذي يتهددنا فليس في الأمور الخارجية لأنه مكتوب: «من سيفصلنا عن محبة المسيح؟ أشدة أم ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عري أم خطر أم سيف؟ لكنا في هذه جميعها يعظم انتصارنا بالذي أحبنا»[٨٣] بل يوجد من الداخل خطران موضحان في تمثيل الغصن والكرمة أحدهما أن نترك تمسكنا بالمسيح ولهذا السبب يقول المسيح «اثبتوا فيّ». والخطر الثاني أن نغلق أبواب قلوبنا عليه لكيلا يحتلها هو ولهذا يقول «وأنا فيكم» ــ لأن معنى العبارة «اثبتوا فيّ» هو أنه يجب أن نتمسك بالمسيح. والعبارة «وأنا فيكم» معناها أنه يجب أن نجعله يمسك بنا ويحلّ فينا. وعليه يقول: «من يثبت فيّ وأنا فيه هذا يأتي بثمر كثير»[٨٤]. لأنه كما بين الصوفيين هكذا يوجد بين المسيحيين ثلاث طبقات هم «الراجعون والواقفون والبالغون»

ثم نقول مرة أخرى إن حالة ثبوتنا في المسيح وثبوت المسيح فينا لا يصل الإنسان إليها بواسطة الجذبة النادرة الوقوع وبالوجد أو أي عمل من الأعمال الغير الاعتيادية بل هي فيضان حياة يسوع المسيح في حياتنا اليومية: «من قال إنه ثابت فيه ينبغي أنه كما سلك ذاك هكذا يسلك

---

[80] لوقا: ٨: ١٣
[81] أول تيموثاوس ٦: ١٢
[82] أعمال الرسل ١١: ٢٣
[83] رومية ٨: ٣٥ ــ ٣٧
[84] يوحنا ١٥: ٥

هو أيضاً»[٨٥] ــ تأملوا في ثلاث كلمات مأخوذة من خطاب المسيح لتلاميذه في تلك الليلة التي أسلم فيها وهي قوله: «سلامي أعطيكم» وقوله «لكي يثبت فرحي فيكم» وقوله «اثبتوا في محبتي». فإنه يعدنا في هذه الكلمات المعزية بأن سلامه هو وفرحه ومحبته تفيض في داخلنا. فكان سلام المسيح دائماً يغلب على فقره والاضطهاد الذي وقع عليه وكان فرحه يدوم في أشد حالات وحدته وانفراده واستدامت محبته رغماً عن بغض الناس له حتى أنه عندما سمّروه على الصليب صلى لأجلهم قائلاً «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون»[٨٦]. وتظهر علامات حياته فينا لأنها الأثمار التي يثمرها روحه فينا كما هو مكتوب «ثمر الروح محبة وفرح وسلام» ثم يعقب ذلك «طول أناة لطف صلاح إيمان وداعة تعفف»[٨٧] فهذه الصفات أشبه بعنقود عنب حلو لذيذ وهي أثمار تنضج في حياتنا العملية في هذا العالم وليس في خلوة الناسك أو كهف الزاهد ــ لأن الشجرة تنمو في الهواء الطلق وتحتاج إلى حر الشمس وشدة الريح العاصفة وهكذا مع أثمار الروح

اعلموا أيها الإخوة أن أسمى حياة أو خدمة ليست حياة العزلة التي تقضى في الأحلام والرؤى بل حياة شبيهة بحياة المسيح التي قضاها على الأرض بين بني آدم فإنه أتى من الحضرة الإلهية ليفيض على الجميع نور الله وقوته كما من ينبوع غزير وعذب. وإنه يعطي روحه القدوس إلى شعبه وبواسطتهم إلى الغير حتى تمتد فيهم حياته وذلك حتى يأتي ثانية من السماء

وأخيراً لاحظوا في تمثيل الكرمة أن ليس كل غصن بمفرده متحداً بساق الكرمة فقط بل إن كل غصن متحد بكل غصن آخر ومشترك معه فإن أبعد الأغصان وأصغرها متحد بالساق وبكل فرع آخر

وهكذا أنتم أيها الإخوة تكونون واحداً في المسيح كما قال في صلاته الشفاعية «ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا»[٨٨] وحينئذٍ تجدون أن المسيح يملأ كل احتياجكم أعني إنه يسد تلك الرغبة في معرفة الله التي جعلتك تسلك في «الطريق»

---

[85] أول رسالة يوحنا ٢: ٦
[86] لوقا ٢٣: ٣٤
[87] غلاطية ٥: ٢٢ و٢٣
[88] بشارة يوحنا ١٧: ٢٠

وهذا الاتحاد وتلك المواهب الصالحة التي تتوقون إليها تصير لك في المسيح فإن كنا نحن فرقة صغيرة قليلة العدد في مكان واحد لكنا جميعاً عائلة واحدة (أهل واحد) مع تلاميذ المسيح في كل زمان وكل مكان وبواسطة فيض حياة الروح الواحد نصير نحن واحداً فيه ونحتاج بعضنا إلى بعض حتى نصل إلى شركة تامة ووحدة كاملة

نعم أيها الأخ كل واحد منا يحتاج إلى الآخر لأجل تكميل جسد المسيح في يوم رجوعه من السماء لكن أهم من ذلك إنه هو يحتاج إليك أنت ويحتاج إليك الآن فإنه كان يسير وراءك مدة طويلة كما يتبع الراعي خرافه وقد ناداك نداءً منبهاً فأيقظك ثم أتى ليعطيك سؤل قلبك. وبواسطة قبول المسيح تصير «ذا نفس راضية مرضية». فهل تسلم نفسك له؟

الخاتمة

لقد آن الأوان لنعود إلى ما بدأنا به ــ فنقول إن «لب الحقيقة ــ أو على كل حال لب معلوماتنا على الأرض ــ ينحصر في سر معرفتنا للمسيح» الذي هو صورة الله غير المنظورة (كولوسي ١: ١٥) فمن يجد المسيح بواسطته يجد الله ذلك هو «العارف» الحقيقي لأنه كلما يتقدم بقية حياته فليس تقدمه إلاّ التعمق في اكتشاف المعلومات التي قد حصل عليها فعلاً.

أيها الإخوة ــ نناديكم وندعوكم أن تسمحوا لهذه المكاشفة السباعية (السبعة الأسرار) أن تصل إلى قلوبكم بشطح قوتها (بكمال فيضها) لأن الأشياء التي كنتم تتوقون إليها وتبحثون عنها بواسطة الذين سبقوكم في الطريق، هذه الأشياء قد صارت الآن أمام نظركم وفي قبضة يدكم حتى أنه يصدق عليكم قول السيد المسيح: «طوبى لعيونكم لأنها تبصر ولآذانكم لأنها تسمع فإني الحق أقول لكم إن أنبياءً وأبراراً كثيرين اشتهوا أن يروا ما أنتم ترون ولم يروا وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون ولم يسمعوا» (بشارة متى ١٣: ١٦ و١٧). لذلك ــ كما يقول الكتاب في موضع آخر ــ انظروا أن لا تستعفوا من المتكلم[٨٩]

نعم إن كثيراً من حياتكم قد تتكسر في البحث عن المسيح مثلما تتحطم القشرة عندما نريد أن نصل إلى اللب الذي داخلها وقد يكلفكم فقد الشرف والمركز والأحباب والمعارف وفوق ذلك يكلفكم إلغاء عادات وعقائد عزيزة عندكم

لكن يا إخوتي تطلعوا إلى الجانب الآخر المبين لكم في أقوال بولس الذي فاق جميع القديسين في اكتشاف الله في المسيح. قال بولس: ــ

«لكن ما كان لي ربحاً فهذا قد حسبته من أجل المسيح خسارة. بل إني أحسب كل شيء أيضاً خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربي الذي من أجله خسرت كل الأشياء وأنا أحسبها نفاية لكي أربح المسيح. وأوجد فيه وليس لي بري الذي من الناموس بل الذي بإيمان المسيح البر الذي من الله بالإيمان. لأعرفه وقوة قيامته وشركة آلامه متشبهاً بموته. لعلي أبلغ إلى قيامة الأموات. ليس إني قد نلت أو صرت كاملاً ولكني أسعى لعلي أدرك الذي لأجله أدركني أيضاً المسيح يسوع. أيها الإخوة أنا لست أحسب نفسي أني قد أدركت. ولكني أفعل شيئاً واحداً إذ

---

[89] عبرانيين ١٢: ٢٥

أنا أنسى ما هو وراء وامتد إلى ما هو قدام. أسعى نحو الغرض لأجل جعالة دعوة الله العليا في المسيح يسوع»

أيها الإخوة لبوا هذه الدعوة العليا يكون لكم السلام وحسن الختام. آمين